

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرست

طه حسين	في الأدب النرلسى - الوباء	۳۳۳
محمد رفعت	سیاسة الدول في الشرق الأوسط	۳۴۷
سليمان حزين	في بلاد اليمن	۳۵۷
بشر فارس	وراء المنظور (قصيدة)	۳۶۸
محمد عبد الله عنان	مراثى الأندلس	۳۶۹
محمد كامل حسين	كتاب سيرة الأستاذ جوذر	۳۷۸
ابراهيم عويدا	بين السياسة والأدب - هجس (قصيدتان)	۳۸۶
حسن عثمان	داتى أليجييرى	۳۸۸
هيلديه زالوشر	البناء الاجتماعى والتعبير الفنى	۳۹۹
محمد عبده عزام	رحلة (قصيدة)	۴۱۲
زكى يوسف سعد	الحفائر الملكية بجلوان	۴۱۴
اوين ا. هولواى	وليم فولكنر	۴۲۳
عبد الرحمن صدق	خاتمة المطاف - حلم بالموت (قصيدتان)	۴۳۲
شوق ضيف	المهذب بن الزبير	۴۳۴

من هنا وهناك (على حافظ - حسين محمد الطيب)

شهرية السياسة الدولية - شهرية العلم - شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب - من وراء البحار - ظهر حديثا

في مجلات الشرق - في مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مصرية
القاهرة



في الأدب الفرنسى

الوباء

هذا كتاب أتيج له فى العام الماضى من النجاح ، ما لم يتح لكتاب فرنسى منذ أعوام طويلة . أجمع النقاد الفرنسيون ، أو كادوا يجمعون على الرضا عنه والاعجاب به . ولعله ظفر بأضخم طبعة عرفتها الكتب الفرنسية ، منذ الحرب العالمية الثانية . وقد قدمه ناشره للجائزة خطيرة من جوائز الأدب فى فرنسا ، وهى جائزة النقد ، فظفر بها فى غير مشقة ، أو قل ظفر بها فى غير استحان ؛ فقد صرح بعض المحكمين للصحف بأنه صوت لهذا الكتاب دون أن يقرأه ، لأنه يتمتع مؤلفه ألبير كاسو من حبه وثقته وإعجابه ما يعفيه من قراءة كتابه قبل أن يمنحه الجائزة . ولست أدرى إلى أى حد يسوغ هذا فى قضية العقل ، وفى قضية النقد الأدبى الصحيح ، ولكنه على كل حال يدل على المكانة الرفيعة الممتازة التى يرقى إليها ألبير كاسو فى نفوس النقاد الفرنسيين ، بل فى نفوس الأدباء والمثقفين والمفكرين الفرنسيين بوجه عام . وسيرة المؤلف أثناء الحرب هى التى رفعتة إلى هذه المنزلة . فقد وفا لوطنه أثناء المحنة ، كأحسن ما يفى الناس لأوطانهم ، وكأحسن ما يفى المثقفون لأوطانهم ، واحتمل فى سبيل هذا الوفاء من الجهد والمشقة والعسر ، ما لم يحتمله كثير من المثقفين الفرنسيين . ثم هو إلى ذلك نافذ البصيرة ، دقيق الفطنة ، صارم الرأى ، مؤمن بالحرية ، وبالحرية الواضحة الصريحة المستقيمة ، التى لا تحب غموضاً ولا التواء . وهو بعد هذا كله ، أو مع هذا كله ، كاتب

ممتاز ، قد أخضع اللغة الفرنسية لسلطانة الصارم السمح معاً ؛ فبرع في الوصف إلى حيث لا يتكاد يباريه أحد من معاصريه ، وبرع في اليسر إلى حيث لا يشق فهمه على أحد . ثم هو بعد هذا كله ، أو قبل هذا كله ، ليس صاحب امتياز في البيان وحده ، ولكنه صاحب امتياز في التفكير أيضاً . فهو أديب بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها ، وهو فيلسوف بأدق معاني هذه الكلمة وأوسعها أيضاً . له محاولات رائعة في فهم الحياة وتفسيرها ، وفي استكشاف الصلة بين الإنسان والعالم الذي يعيش فيه ، وفي تفسير الوجود من حيث هو وجود ، وفي تفسير المصير الذي أتيح للإنسان أن ينتهي إليه .

والمتقفون جميعاً يعرفون مذهب ألبير كامو في العبث ، وكثير منهم قرءوا دون شك كتابه الرائع المشهور أسطورة «سيزيف» . وأسطورة هذا البطل اليوناني معروفة ؛ فقد قضى عليه أن يظل في دار الموتى مقبلاً على صخرة عظيمة ، يرفعها من سفح الجبل إلى قمته ، يلقى في ذلك الجهد والنصب والعناء ، حتى إذا ارتقى بالصخرة إلى القمة رآها تدفع إلى الانحدار بقوة لا يملك لها رداً ، حتى تصل إلى حيث كانت من القاع . ورأى نفسه مضطراً بحكم القضاء إلى أن يستأنف الجهد والنصب والعناء ، فيدفع الصخرة ليرفعها إلى القمة ، وما يزال يرقى بها إلى أعلى الجبل ، وما تزال تنحدر به إلى القاع ، إلى آخر الدهر ، إن كان للدهر آخر . فهذا الجهد الذي يبذله ، وهذا النصب الذي يلقاه ، وهذا العناء الذي يشقى به ، عبث متصل ليست له غاية يقف عندها ولا حد ينتهي إليه ، ولا غرض يبتغى منه . والعالم عند ألبير كامو شيء يشبه هذا الجهد الذي يبذله البطل اليوناني في غير طائل . فليس للعالم غاية ينتهي إليها ، ولا حد يقف عنده ، ولا غرض يبتغى منه ، وإنما هو ماض في هذا الوجود العاث إلى غير غاية ، ولا أسد ، وإلى آخر الدهر إن كان للدهر آخر . والإنسان في هذا العالم مدفوع إلى مثل ما دفع إليه العالم ، من هذا العبث الذي لا ينتهي إلى غاية ، ولا يحقق غرضاً . وليس بينه وبين غيره من الكائنات التي يأتلف منها العالم فرق إلا أن له شعوراً وعقلاً ؛ فهو يحس الجهد العنيف الذي يبذله ، ويجد النصب الناصب الذي يلقاه ، ويأسى للعناء البغيض الذي يشقى به ، ويحاول أن يفهم جهده ونصبه وعناءه ، فلا يصل إلى شيء ، أو يصل إلى ما يخيل إليه أنه حل للمشكلة ، وتفسير

للغز ، ولكنه إذا تعمق ما يصل إليه من حل وتفسير لم يجد وراءه شيئاً ؛ فهو مصعد في الجبل دائماً وأمامه صخرته تلك ، وهو مصوب في الجبل دائماً وأمامه صخرته تلك ، وهو ينفق الدهركه في تصعيد وتصويب تتابع أجياله على ذلك ، رافعة للصخرة إلى القمة ، منحدره معها إلى القاع . ومهما يفعل الانسان فلن يستطيع أن يغير من هذا العبث شيئاً . ولكنه مع ذلك حر في حدود هذا العبث ، يستطيع أن يلائم بينه وبين نفسه ، وأن يختار ن أطوار الحياة والتفكير والعمل ما يريد ، وأن يحقق مما يختار ما تساعده الظروف على تحقيقه . يستطيع أن يؤثر لوناً من الحياة على لون ، وضرباً من التفكير على ضرب ، وفناً من التصرف على فن ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل للوجود غاية أو غرضاً ، ولا يستطيع أن يغير أنه دفع إلى الحياة غير مختار ، وسيدفع إلى الموت غير مختار ؛ نغريته محدودة بهذين النوعين من الجبر . فليصطنع الحكمة إن شاء ، وليصطنع الحمق إن أحب ، فلن يخرج من هذه الحلقة المفرغة بحال من الأحوال .

ويمضى ألبير كامو في الملامة بين مذهبه هذا اليائس ، وبين الحياة التي يحياها الناس على اختلافها وتباين منازلهم فيها وحظوظهم منها . ثم هو لا يكتفى بهذا الكتاب . ولكنه ينتقل بمذهبه هذا إلى القصص ، وإلى التمثيل . قصة الغريب ، ومسرحية كاليجولا ، وسوء التفاهم ، ليست في حقيقة الأمر إلا محاولات للملامة بين هذا العبث الأساسي ، وبين حرية الانسان . والكتاب الذي أتحدث عنه يعرض هذه المشكلة عرضاً واضحاً جلياً ، وهو من أجل ذلك يثير الرغبة كل الرغبة في البحث والجدل والاستقصاء . ويجب أن أقول إن العنوان الذي اتخذته لهذا الحديث ، ليس هو ان عنوان الدقيق لهذا الكتاب ؛ فعنوان الكتاب هو « الطاعون » . وقد كرهت أن أجعل هذا اللفظ البشع عنواناً لهذا الحديث ، وكنت أريد أن أتحدث إلى القارىء عن هذا الكتاب ، أثر عودتي من فرنسا ، في أول الحريف الماضى ، ولكنى وجدت مصر موبوءة بالكوليرا ، ووجدت حديث الوباء فيها شائعاً مستفيضاً ، كما كان الوباء نفسه شائعاً مستفيضاً . فكرهت أن أتحدث عن الوباء ، وأجلت الحديث إلى فرصة أخرى ، ثم أنسيته ، ثم شغلت عن ذكره حتى كان شهر مارس ، فاذا حديثان يلتقيان إلى الجمهور المثقف باللغة الفرنسية عن هذا

الكتاب ، يليقهما خبران جليلان من أخبار المسيحية الكاثوليكية . أحدهما الأب زوندل ، وقد ألقى حديثه في دار السلام ، والآخر الأب بونتيه ، وقد ألقى حديثه في نادى الشبيبة .

وقد استمعت لهذين الحديثين ، فذكرت ما كنت قد انسيت ، ورأيت أن أتحدث إلى قراء هذه المجلة عن هذا الكتاب ، على نحو ما كنت أريد أن أتحدث إليهم عنه في الحريف . وليس غريباً أن يثير هذا الكتاب اهتمام المسيحيين ، واهتمام أخبارهم خاصة ، بل من الطبيعي أن يثير اهتمام أخبار الديانات كلها ؛ لأنه يضع موضع البحث مصير الانسان من جهة ، ويضع موضع البحث موقف العقل من الدين ، أو موقف العقل من الإله من جهة أخرى . وهو يضع هذه المشكلة وضعاً صريحاً في هذا الكتاب ؛ لأنه ينطق خبراً من أخبار الكاثوليكية براه في الصلة بين الانسان وخالقه ، ثم ينطق فريقاً من الذين لا يؤمنون بما ينقض آراء هذا الخبر المسيحي . ففي الكتاب شئ من التحدى لم يوجد في الكتب الأخرى التي عرض فيها ألبير كامو مذهبه هذا في الوجود .

ولاحظ قبل كل شئ أنى قد قرأت هذا الكتاب أثناء الصيف الماضى وأقبلت على قراءته مشغولاً بها ، مشوقاً إليها أشد الشوق ؛ لأنى أحب الكاتب وأعجب بفنه . ولكنى لم أكد أمضى في قراءة الكتاب ، حتى أدركنى شئ من خيبة الأمل ، ثم أخذت أضيّق به وأمضى في قراءته كارهاً للمضى فيها . ولو قد استجبت لميولى الأدبية لما اتممت قراءة الكتاب ، ولكنى لا أكاد أبدأ كتاباً حتى أفرض على نفسى إتمامه ، مهما يكن رضى عنه ، أو سخطى عليه . تفرض ذلك على طبيعتى التي تحب الاستقصاء ، وصناعتى التي تفرص على الاستقصاء فرضاً ، وتدفعنى إلى أن أتهم نفسى ولا أحفل بما يثور فيها من رضا أو سخط ، ولا أجعل رضاها أو سخطها وسيلة إلى الحكم للكتاب أو الحكم عليه .

ومصدر هذا الضيق الذى وجدته أثناء هذه القراءة أن الكاتب أخلب ظنى ؛ فقد كنت أنتظر أن أقرأ آية أدبية كالغريب ، أو كالبجولا ، أو سوء تفاهم ، أو كنت أنتظر أن أقرأ دراسة فلسفة متقنة كأسطورة سيزيف ، فإذا أنا أمام شئ ليس هو بالقصص الخالص ، ولا هو بالفلسفة الخالصة ، وإنما

هو محاولة لشيء بين ذلك : يريد أن تكون قصة تروع بالفن الأدبي فلا يبلغ ما يريد ، ويريد أن يكون درساً يروع بدقة البحث وحسن الاستقصاء فلا يبلغ ما يريد .

وقد عرض علينا ألبير كامو في كتابه هذا مدينة بعينها هي مدينة وهران في الجزائر ، تصور أنها قد امتحنت ذات يوم وبواء الطاعون . فهو يعرض علينا كيف استقبلت المدينة هذا الوباء شاكة فيه ساخرة منه أول الأمر ، وكيف استقبلت هذا الوباء بعد أن انجلى بشك . وأبانت الكارثة عن نفسها في غير غموض ، فكان الذعر والهلع ، وكان تردد الحكومة وتلكؤها وتقصيرها . ثم كيف استقبلت المدينة هذا الوباء حين عظم أمره ، واشتد فتكه وأصبح خطره شنيعاً ، فقطعت المواصلات بينها وبين العالم الخارجي ، وضرب عليها حصار شديد قاس يجمع الخروج منها والدخول إليها ، ويعزلها عن العالم عزلاً تاماً ، لولا البرق الذي ينقل أطرافاً من أخبارها إلى الدنيا ، وينقل إليها أطرافاً من أخبار الدنيا ، ويتيح لبعض أهلها في كثير من المشقة والجهد ، أن يتصلوا بذوى قرباهم في المواضع النائية عنهم . وكل هذا التصوير صادق كل الصدق ، دقيق كل الدقة ، قد شهدناه إلى حد ما في الأشهر القليلة الماضية . وتصوير آخر لحال المدينة ليس أقل صدقاً ولا دقة من هذا التصوير ، وذلك حين يعرض الكاتب ما يكون من الصلة بين الحكومة وبين الشعب أثناء المحنة . فالحكومة في أول الأمر قد فوجئت بالكارثة ، لم تكن تنتظرها ولم تكن قد استعدت لها . وهي من أجل ذلك تنكر الكارثة مخلصاً ، ثم متكلفة ، ثم مكابرة ، ثم تضطر إلى الاعتراف بما ليس بد من الاعتراف به ، ثم تتخطب في مواجهة الكارثة ، فيكثر خطؤها ويقبل صوابها ، ثم تلتجئ إلى العالم الخارجي تطلب منه المعونة والغوث ، ثم تنتهي آخر الأمر إلى الحزم الجاد حتى يزول الوباء . وهي في أثناء هذا كله لا تقول للناس من أسر الكارثة وتطورها وفتكها وضحاياها إلا ما تريد هي أن تقول . وبين ما تقوله للناس وبين الحقائق الواقعة بون شاسع وأمد بعيد دائماً .

وليست حال الشعب نفسه بخير من حال الحكومة ؛ فالشعب يشك ثم ينكر ، ثم يتكلف ثم يكابر ، ثم يدعن للحقيقة الواقعة ، ثم تختلف به المذاهب بعد ذلك : فأما الفقراء فيذعنون في غير مقاومة ويؤدون إلى الوباء ضريبته

فادحة . وأما الأغنياء فيؤثرون أنفسهم بأسباب الوقاية والعلاج ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وأما أوساط الناس فيتذبذبون بين أولئك وهؤلاء بمقدار حظهم من اليسر وسعة ذات اليد . وقد حوصرت المدينة وفرضت عليها الأحكام العرفية وقتر على أهلها في الرزق ؛ فشقى الفقراء إلى غير حد ، ونعم الأغنياء ما استطاعوا أن ينعموا ، واضطرب أوساط الناس بين الشقاء والنعم . وتكشفت الأخلاق عن مكنونها ، فكانت الأثرة ، وكان الاحتكار ، وكان ما ينشأ عنهما من التنافس والتباغض والاحتيايل إلى آخر هذه الرذائل التي تتكشف عنها الانسانية حين تلم بها الخطوب ، وتلج عليها الكوارث . وفي أثناء هذا الشر كله يظهر شيء من خير قليل ، ولكنه قيم منتج قوى ، يستطيع أن يقهر الشر شيئا فشيئا حتى يحوره وحتى يطرد الوباء عن المدينة ، ويرد الناس إلى ما ألفوا من حياة ، أو يرد إلى الناس ما ألفوا من حياة . فهؤلاء الأطباء الذين يعرفون الوباء ويحققون خطره ، ويضممون على مقاومته ماوسعهم هذه المقاومة ، لا يدخرون في سبيل ذلك جهدا ، ولا ييخلون بقوتهم مهما تكن ، ولا يترددون في التضحية براحتهم وأمنهم ، وفي التعرض للخطر مصعبين وممسين ، ولا يبتغون على ذلك أجرا لا في الدنيا ولا في الآخرة . لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، ولأنهم يرون أن أجور الدنيا ليست بذات خطر ولا غناء ، فهم أعداء الوباء لأنه الوباء ، وهم حماة الحياة والصحة لأنهما الحياة والصحة ، لا أكثر ولا أقل .

هذه هي الخلاصة الظاهرة للكتاب . وهي كما ترى يسيرة قريبة ، لا عسر فيها ولا بعد . وهي كما ترى لا تدل على عمق في التفكير ولا على براعة في الابتكار . ولكن هذه الخلاصة الظاهرة ليست إلا أيسر ما في الكتاب ، بل قل إنها ليست إلا رمزا ضئيلا للحقيقة التي أراد إليها الكاتب حين ألف الكتاب . فهو لم يرد إلى مدينة وهران ولا إلى غيرها من المدن . وهو لم يقصد إلى الطاعون ولا إلى غيره من هذه الأوبئة التي تلم بالناس بين حين وحين . وإنما أراد إلى ما هو أعظم من ذلك شأنا ، وأجل خطرا ، وأكثر شمولا . فمدينة وهران رمز لفرنسا وغيرها من البلاد الأوربية التي اجتاحتها الحرب ، واحتلتها العدو وعزلها من العالم الخارجي عزلا تاما . والطاعون هو الحرب والاحتلال والبطش والנקال . والشعب الذي انقسم هذا الانقسام ،

وتفرقت طوائفه هذا التفرق ، وتكشفت أخلاقه عن هذه السيئات الكثيرة والحسنات القليلة ، واحتمل ما احتمل ، وقاوم ما قاوم حتى انجلت عنه الغمرة ، هو هذه الأم التي اصطلت نار الحرب ، وخضعت لنكر الاحتلال . والأطباء والمتطوعون الذين جاهدوا بأنفسهم وضحوا بحياتهم حتى جلوا هذه الغمرة ، لم ينتظروا على ذلك أجراً ، هم قادة المقاومة وزعماء الجهاد . بل إن هذه الحقيقة نفسها ليست إلا رمزاً لحقيقة أخرى أعم منها وأكثر شمولاً . فمدينة وهران ليست في حقيقة الأمر إلا الأرض كلها . وشعب وهران ليس في حقيقة الأمر إلا الإنسانية كلها . وطاعون وهران ليس في حقيقة الأمر إلا الشر الذي يلم بالناس في جميع المواطن والعصور . وأطباء وهران ومتطوعوها ليسوا إلا المفكرين والمثقفين والمصلحين والفلاسفة ، الذين يبذلون ما يملكون من جهد لوقاية الإنسانية وحمايتها مما يلم بها من الشر ، ويصب عليها من المكروه . فالكتاب كما ترى يسير قريب في ظاهره ، ولكنه أشد عمقاً وأبعد مدى مما يخيل إلينا هذا اليسر ؛ لأنه في أي صورتيه الرمزيتين ، إنما يعرض جزءاً غير صغير من العالم الذي اصطلى نار الحرب ، وما ألم بهذا الجزء من الخطوب والمشكلات ، وما بدا فيه من مظاهر الضعف والقوة وألوان الحين والبطولة . وهو في أشد صورتيه عمقاً وتعقيداً ، إنما يضع قصة الإنسانية كلها موضع البحث ، ويعرض قضية الخير والشر كلها على العقل ، ويحاول أن يجد جواباً لهذا السؤال التي تلقيه الإنسانية العاقلة على نفسها منذ عقلت ، وهو : ما مصير الإنسان ؟

وهنا يسأل القارئ نفسه قبل كل شيء : هل وفق الكاتب توفيقاً أدبياً حين اختار هذا الرمز الضئيل النحيل لهذه المشكلة الكبيرة الخطيرة ، وهي حال العالم الذي اصطلى نار الحرب ؟ ثم هل وفق الكاتب توفيقاً أدبياً حين اختار هذا الرمز الضئيل النحيل لهذه القضية الكبرى ، قضية الإنسان بين الخير والشر ، وقضية الإنسان بين العقل والدين ؟ أما أنا فأعتقد أن التوفيق الأدبي قد أخطأه إلى حد بعيد ؛ لا لأن الرمز ضئيل نحيل ، فمن طبيعة الرمز أن يكون ضئيلاً نحيلًا بالقياس إلى ما يرمز إليه الكاتب من المسائل الكبرى والمشكلات الضخام ؛ ولكن لأن هذا الرمز الضئيل النحيل قد احتاج إلى تفصيل كثير لا يلائم ضآلته ونحولته . فمدينة

وهران قد فُجأها الطاعون كما أن العالم قد فُجأته الحرب . ومدينة وهوان قد شقيت بالطاعون ، وأظهر هذا الشقاء ما في نفوس أهلها من خصال الخير والشر ، كما أن جزءاً من العالم قد شقى بالحرب التي أذلته ، وأظهر هذا الشقاء ما في نفوس أهله من خصال أهله من الذاة والعزة ، والضعف والقوة والخور والجلد ، والأثرة والايثار . كل هذا حق لا شك فيه . ولكن دقائق الرمز قد اجتاحت إلى إغراق في التفصيل ، أخرجته عن أن يكون رمزاً . فوصف الطاعون وصفاً مفصلاً ، يصور أعراض العلة ومظاهرها وتطورها ، ودقائق علاجها وأعقابها وعقاييلها ، وآثارها في نفوس القرييين منها والبعيدين عنها ، كل ذلك يبعدنا عن الرمز ليغرقنا في دقائق الحياة الخاصة . فنحن في مدينة قد ألم بها الطاعون وألح عليها ، ونحن مشغولون بهذه المدينة البائسة المعدبة ، وبهذا الوباء الذي تفصّل دقائق تفصيل ، عن التفكير في أوروبا المغلوبة على أمرها ، المتحنة بالبطش والعسف والاحتلال . بل نحن مصروفون إلى هذه المدينة البائسة المعدبة ، وما تلقى من هذه الأهوال اليومية الذي تفصّل دقائقها تفصيلاً ، عن التفكير في الإنسانية حين يلم بها الشر وتدخل من حوها الخطوب ، لولا أن الكاتب يضطرننا إلى هذا التفكير بما يدور حول بعض الأشخاص من حوار يتجاوز المحنة الخاصة إلى الشر الغام ، وبما يسجل هو من ملاحظات تتجاوز مدينة وهران ومحنتها ، إلى طبيعة الحياة الإنسانية وما يختلف عليها من الكوارث والأحداث . فالقارى قلق مضطرب متدد لا يدري أهو بازاء رمز مجمل يشير إلى أحداث خطيرة وقضايا عويصة ، أم هو بازاء قضية بعينها لا يريد الكاتب أن يبعد به عنها ، وإنما يريد أن يتعمقها معه تعمقاً وهي امتحان وهران بهذا الوباء .

ذلك إلى أن الكاتب أراد أن يكون موضوعياً كما يقال ، فجعل نفسه قاصّاً يروى أحداثاً سجلها أثناء هذه المحنة ، وقد برأ نفسه من الذاتية التي تجعل للعواطف والأهواء والميول والفرز أثرأ أى أثر فيما يروى من الأحداث . وهذا النوع من تكلف الاعراض عن الفن واللاحاح في الرواية الموضوعية ، قد يكون في نفسه فنّاً رائعاً ، ولكن الكاتب لم يحسنه . فقصصه ممل في كثير من المواضع كأنه يتكلف شيئاً لا يتقنه ، وهو من أجل هذا يثقل على القارى بعض الشيء . وما أحب أن أظلم لكاتب ؛ فقد ينبغي أن أسجل أنه برع

البراعة كلها في القسم الأول من كتابه ، فأنشأ البيئة الفنية أحسن إنشاء وأجوده . وقد تحدثت إلى غير قارىء من الفرنسيين في باريس عن هذا الكتاب حين بدأت قراءته . فقال لى غير واحد منهم : لن تستطيع أن تفتن بالكتاب قبل أن تفرغ من ثلثه الأول . ولكنى فرغت من ثلثه الأول ، والثاني والثالث ، ونظرت فإذا أنا مفتون بثلثه الأول دون ثلثيه الآخرين . ذلك لأن الكاتب أرسل نفسه على سجيته حين ابتدأ كتابه : فهذا طبيب يخرج من منزله في طابق من الدار الكبيرة التى يسكنها ، يرى في الدهليز فأراً ميتاً ، ويلفت البواب إلى مكانه ؛ فيغضب البواب لأن داره نظيفة لا يمكن أن يوجد فيها فأر ميت . ثم تمضى الأحداث فى يسر يسير على هذا النحو ، حتى يعود الطبيب ذات يوم ، فإذا البواب يعترف بكثرة الجرذان التى تموت . ثم يعود ذات يوم فإذا البواب نفسه عليل ؛ فيحاول علاجه ؛ حتى إذا ثقل نقله إلى المستشفى ، فأت فى أثناء الطريق ، كل هذا يصور ابتداءً رائعاً لكتاب يريد أن يصف إلام الطاعون بمدينة من المدن ، وأمر هذا الطبيب والبواب ليس إلا مثلاً ؛ ففي المدينة قوم آخرون يمرضون بالجرذان الميتة ، فينكرون ثم يرتابون ثم يذعرون ، والحكومة تنبه شيئاً فشيئاً ، فتتحرر وترتاب وتذعر ، وتحاول أن تهدئ الشعب ، ثم ترى نفسها أمام الحقيقة الواقعة ، فتأخذ الشعب بالقوة والحزم . وهذا كله يذكر القارئ بما كان من نذر الحرب الأخيرة حين كانت الأحداث اليسيرة تحدث فيلفت إليها أصحاب الأنظار البعيدة ، ويعرض عنها أصحاب الأنظار القصيرة ، وتكون الحكومات بين هؤلاء . ولكن الأحداث الصغيرة تكثر وتنتشر ، كما تكثر الجرذان الميتة وتنتشر ، فيكون الشك ، ثم يكون الخوف ، ثم يكون الذعر ، ثم تكون مواجهة الحقيقة الواقعة البشعة .

ولو أن الكاتب مضى فى سائر كتابه على النحو الذى مضى عليه فى أوله لأهدى إلينا كتاباً رائعاً ، ولكنه لم يلبث أن تعثر فى التفاصيل والدقائق الخاصة ، فأفسد الكتاب على نفسه وعلينا جميعاً .

وأخرى لابد من تسجيلها رعاية لما ينبغى من الانصاف ؛ فقد صور الكاتب جماعة من أشخاص الكتاب تصويراً دقيقاً صادقاً حقاً . فهذا الطبيب الذى رأى الجرذ الميت ، وسبق إلى الانذار بوباء الطاعون ، واستقبل الجهاد فى ثبات

وأناة ، وتضحية وتواضع لا ينتظر أجراً ، ولا يريد إلا أن يقهر الوباء وينقذ الحياة من شره . وهذا الصحن الذى لجأ الوباء فى المدينة ، وهم أن يخرج منها ليلحق بمن يحب ، واحتال فى هذا الخروج وبذل فيه الممكن وغير الممكن من الجهد ، فلما استيأس من ترك المدينة أقبل على الطبيب ، فطوع للجهد وأبلى فيه أحسن البلاء . وهذا الشاب الطموح إلى المثل العليا ذو الآمال البعيدة والأمانى العراض ، والذى أقبل منطوئاً فأشاع الحاسة من حوله ، ونظم لجهاد فأحسن تنظيمه ، ومضى بعد الانتصار ضحية أخيرة للوباء . وهذا الموظف المتواضع الذى يداعب الغرور الفنى ، ويحاول فى سذاجة أن يكون كاتباً يضع قصة غرامية يتعزى بها عما أصابه من الحزن ، ويتقنها حتى يرقى بها إلى أرفع منازل الفن ، والذى يترك هذه القصة فى يسروى غير تكلف ليغنى بالجهد حتى يبلى فيه أحسن البلاء ، لا يشعر بأنه يجاهد ، ولا بأنه يضحي ، ولا بأنه يتعرض للخطر ، وإنما يشعر بأنه يؤدى واجب التضامن الاجتماعى فى أيسر اليسر - كل هؤلاء الأشخاص وأشخاص آخرون قد صورهم الكاتب فأجاد تصويرهم وبرع فيه . ولكنهم يظهرون فى أثناء هذا الكتاب ، كأنهم الواحة التى يرتاح إليها القارئ بين حين وحين ، وكأن القصة من حولهم طريق وعرة مضنية ، لا يمضى القارئ فيها إلا متكرهاً يحتاج إلى أن يستريح . هذه هى الناحية الأدبية لهذا الكتاب ، وهى أيسر الناحيتين بالقياس إلى الكاتب من جهة ، وإلى القارئ من جهة أخرى ، وإلى التفكير الفلسفى من جهة خاصة . فقد يمكن أن يقال إن الكاتب لم يرد إلى إنشاء قصة بالمعنى الذى ألفه الناس . وقد يمكن أن يقال إن القراء جميعاً ليسوا من العسر بحيث يحاسبون الكاتب حساباً يسيراً أو عسيراً ، على ما أتيج له وما لم يتج له من التوفيق . فاما الناحية الفلسفية فهى الغاية التى من أجلها كتب الكتاب ، وهى لا تحتل تسامحاً ولا تهاوناً ولا تفريطاً . فالدقة فيها هى الأصل ، واستقامة التفكير شرط أساسى لكل فلسفة . وقد قدمت أنى لست مقتنعاً ، بل إلى بعيد كل البعد عن الاقتناع بالذهب الفلسفى العام لأبير كامو ، وهو مذهب العبث . ويخيل إلى بعد ذلك أنه لم يوفق فى عرض مذهبه فى هذا الكتاب . وأحب قبل كل شئ أن ألاحظ شيئاً من التحكم دفع الكاتب إليه حين أراد أن يبين موقف الانسان بين العقل والدين .

فهو قد أنشأ شخصاً جعله حبراً من أحبار اليسوعيين ، وأنطقه بما ظن أنه يصور مذهب أصحاب الديانات فيما يلم بالانسان من الشر ، ثم مضى بعد ذلك ينكر ما قاله هذا الحبر اليسوعى ، محيلاً أو معتقداً أنه بالرد على هذا الحبر يرد على أصحاب الديانات جميعاً . وهذا الحبر اليسوعى قد أنشأه ألبير كامو نفسه بالطبع ، وأنطقه بما أراد أن ينطقه به . وأكاذباً اعتقد أنه لم يخلص من بعض الظلم حين صنع حبره على هذا النحو ، وحين أنطقه بما أنطقه به من القول . وآية ذلك أن أحبار المسيحيين أنفسهم ينكرون هذا الحبر الذى صنعه ألبير كامو ، ويراه بعضهم مسرفاً على الدين ، ويراه بعضهم خارجاً على الدين . وخلاصة ما يقوله الحبر للمؤمنين الذين أقبلوا يستمعون إليه فى الكنيسة ، أنهم يتحنون بكارثة خطيرة ميرة ، وأنهم أهل لما ألم بهم من هذه الكارثة ؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم بمعصية الله والخلاف عن أمره ، فهو يعاقبهم بما يصب عليهم من الهول ، ويجب عليهم أن يتلقوا هذا العقاب راضين به مدعنين له مطمئنين إليه ، تائبين إلى الله بما أسرفوا على أنفسهم فى الخطايا والموبقات . فالاله عند هذا الحبر الذى صنعه ألبير كامو سيد متكبر متجبر عزيز منتقم ، يضع الانسان أمام سيئاته دون أن يفتح له باباً من أبواب الرحمة ، أو يمسه بجناح من الرفق ، وهو يأخذ البرئ بذنب المسئ ، ويعاقب الصغار بذنوب الكبار . كذلك صور هذا الحبر موقف الانسان من إلهه موقف العبد الخاضع المذعن الذى يجب أن يمعن فى الخضوع والاذعان ، من السيد الكبير المتجبر الذى يستطيع أن يمعن فى الجبرية والكبرياء . وواضح أن الذين لا يؤمنون من الملحدون ينكرون هذا الاله المتكبر المتجبر ، ويرون أن فى كبريائه وجبريته قسوة عنيفة ، وغلظة غليظة ، وتجاوفاً عن العدل . فما ذنب الأطفال الذين عذبهم الطاعون وهم لم يعصوا للاله أسراً ولم يخالفوا عن قانونه ؛ لأنهم لم يعرفوا هذا القانون ولم يبلغوا سن التكليف . ومن يكفل أن يكون الثواب الذى يدخره هذا الاله لمن يدخره له من الناس قائماً على العدل ، مادام العقاب فيما يرون ليس قائماً على العدل ! فالتكبر المتجبر قادر على أن يتحكم فيما يدخر للناس من مشيئة ، كما يتحكم فيما يصب عليهم من عقوبة . وهم من أجل ذلك لا يؤمنون بهذه الصلة التى لا تقوم على العدل ، ولا على الحرية . وإذ

كانوا لا يعرفون طريقاً إلى الإله غير هذه الطريق التي رسمها الدين ، كما صوره هذا الخبر ، فهم لا يؤمنون بشئ بعد الطبيعة . وهم من أجل ذلك يعملون لا ينتظرون على عملهم أجراً في الآخرة ؛ لأنهم لا يعرفون الآخرة . كما أنهم لا يخافون عقوبة في الآخرة إن لم يعملوا ؛ لأنهم لا يعرفون الآخرة . وهم من أجل ذلك يعضون في محاولة الخير إلى أقصى غاية ممكنة ، حتى يقول بعضهم لبعض : أليس من الممكن أن يصير بعض الناس قديساً مدنياً ، دون أن يؤمن بالله الذي يتلقى القديسين بما أعد لهم من أجر ومثوبة ، فيما يقول رجال الدين ؟

كذلك عرض ألبير كامو هذه المشكلة عرضاً يظهر فيه التحكم والسذاجة كما ترى . فلما التحكم فلان خبره هذا ليس من الضروري أن يكون قد نطق بلسان أصحاب الديانات ، فأحسن الاعراب عنهم . وآية ذلك أن رجال الدين أنفسهم ينكرونه . وآية ذلك بوجه خاص أن الديانات الساموية كلها لا تحدثنا عن الإله المتكبر المتجبر المنتقم الباطش بحسب ، ولكنها تحدثنا كذلك عن الإله الرحمن الرحيم العفو الغفور الذي يقبل الحسنة ، ويتوب على المذنب ، وتوسع رحمته كل شئ وكل إنسان .

فمن التحكم إذن والتعسف أن يقال إن صلة الإله بالإنسان هي صلة السيد المتجبر المتكبر ، بالعبد الذي يجب أن يذعن ويستكين ليس غير . وإنما الديانات تقول إنها كذلك صلة القوى الرحيم بالضعيف الذي يحتاج إلى الرحمة .

وأخص ما يؤخذ به ألبير كامو من التحكم في هذه القضية أنه ما زال يفكر بعقل القرن التاسع عشر حين كان هذا العقل ثملاً مغروراً لكثرة ما استكشف من العلم وابتكر من المخترعات ، حتى ظن أنه قد عرف كل شئ ، وأحاط بكل شئ ، وأصبح قادراً على أن يحكم على كل شئ ، ويقول كلمته في كل شئ . ولكن العقل فيما يظهر قد ثاب إلى شئ من الرشد والتواضع منذ أواخر القرن الماضي ، وقد استبان له أنه مادام يعترف بأنه يجهل من حقائق هذا العالم أكثر مما يعلم ، وبأنه يستكشف حقائق هذا العالم قليلاً ، ويستكشفها في كثير من الحذر والاحتياط ، فمن الجراءة أن ينكر ما عدا هذا العالم ، وأن يقول فيما ليس له به علم ، وما ليس له سبيل إلى القول

فيه . فهو لم يعرف الاله ، ولم يستطع أن يجد الطريق إلى معرفته من طريق الحس والتجربة والملاحظة ، كما يعرف ما يعرف من حقائقه العلمية . ولكنه يلاحظ في غير شك أن من الناس من يسلك إلى معرفة الاله طرقاً غير طرق الحس والتجربة والملاحظة ، ويجد في سلوك هذه الطرق رضا وأمناً وثقة واطمئناناً ؛ فأيسر ما تفرضه عليه الدقة أن يقف موقف الانتظار ، لا يتجاوزه إلى الجحود والانكار ، فضلاً عن أن يتجاوزه إلى موقف الحكم على ما يوصف به الاله من صفات ، وما يصدر عنه من أعمال . فكل هذا تجاوز للقصد وخروج على قوانين العقل نفسه . فالعقل لا يحكم إلا عن علم . ومتى أخطأه العلم وجب عليه أن ينتظر . فالذين يعدون أطوارهم ، ويصفون الاله بالقسوة والعنف أو بالغلظة والظلم ، لا يسرفون على أنفسهم فحسب ، وإنما يدفعونها إلى السخف والهذيان ؛ لأنهم يقولون عن غير علم ، ويحكمون عن غير بصيرة . وما من شك في أن الذين يعملون الصالحات لا يبتغون بها إلا الخير ، ولا ينتظرون عليها أجراً في الدنيا والآخرة . قوم أخيار من حق الانسانية لنفسها أن تكبرهم وتتخذهم أسوة وقدوة في حب الخير والسعي إليه والجد فيه ، غير مبتغية عليه جزاء ولا شكوراً . ولكن ليس من شك في أننا لا نعلم مصير هؤلاء الأخيار ، كما أننا لا نعلم مصير الأشرار بالعقل ؛ لأن العقل لا يعرف مما بعد الطبيعة شيئاً .

وإذا كان الأمر كذلك بالقياس إلى هذه القضية ، فمذهب العبث كله معرض لهذا النقد نفسه ؛ لأن من الجراءة والاسراف في الكبرياء والغرور أن يقول إنسان لست أعرف لهذه الوجود غاية ولا حكمة ولا غرضاً ، فيجب أن يكون هذا الوجود عبثاً . وإنما الذي يجب أن يقال لست أعرف لهذا الوجود غاية ولا حكمة ولا غرضاً ، فيجب أن أنتظر لعل أستكشف أنا ، أو لعل غيري أن يستكشف لهذا الوجود حكمة وغاية وغرضاً .

والشيء المحقق هو أن مذهب العبث هذا ، لون من ألوان اليأس الذي تدفع الانسانية إليه ، حين تشتد عليها الأزمات ، وتأخذها الخطوب والأحوال من جميع وجوهها .

وقد عرفت الانسانية هذا اليأس في كثير من عصورها المختلفة التي تعرضت فيها لأنواع الهول ، وعرفت ما نشأ عن هذا اليأس من مذاهب الشك

والتشاؤم والجموح . وسهما يكن من شئ فلو لم يكن لهذا الكتاب إلا أنه يدعو قارئه إلى أن يفكر ويبتلي التفكير في مسائل ليست هي من هذه الهنات اليومية ، التي تملك عليه أمره وتفسد عليه حياته ، لكان خليقاً أن يقدر ويقرأ في إعجاب بصاحبه واعتراف له بالجميل . لأنه يرفعنا من طور الحياة اليومية السخيفة ، إلى طور التفكير في المشكلات العليا . وما أقل ما يرق بنا إلى هذا الطور من التفكير الرفيع في هذه الأيام .

ط م ص